



نشرت قبل أيام كلمة صغيرة على صفحتي، لم أنشرها مقالة عامة ولا قدرت أن يقرأها غير مئات من الذين يتبعون الصفحة، فشرّقت وغرّبت وقرأها آلاف وعلق عليها جمع غفير. وتابعتُ الزوبعة التي أثارتها ظهر لي أن الأمر يحتاج إلى تعليق موسّع، فقد وجدت أن عامة الناس يقفون من العلماء ثلاثة مواقف، أوسطها معتدل صحيح، وعلى طرفيه نقضان لا يصحّ أيٌّ منها ولا يجوز بقاوته بلا علاج.

الأوسترون - وأرجو أن يكونوا الفتنة الأكبر - هم الذين يتألّقون علماءهم بالقبول فيقدّرون علم العالم وإخلاص المخلص منهم، فإذا أصاب تابعوه وإذا أخطأ نصحوه وقوّموه، لا يزهدّم خطّوه في علمه إن كان عالماً حقاً، ولا ينفضّون عنه ولا يتركونه جملةً ما دام مخلصاً ولو جانبَ الصواب أو أغرب في الاجتهاد.

على إحدى الجهاتين من هذا الفريق الأوسط نجد جماعة من المتابعين والمریدين الذين لا يجرؤون على التساؤل عن صواب رأي العالم مهما تلبسته الغرابة، ولا يُجيزون لأنفسهم الاعتراض عليه أو انتقاد رأي يراه، بل يسلّمون عقولهم ويستسلمون لكل ما يسمعون،

إذا أخطأ (ومَنِ من الناس لا يخطئ؟) تابعوه على الخطأ كما يتبعونه على الصواب، ولو جاءهم من ينصحهم ردّوه وخاصموه لأن الانتصار لشيوخهم هو الفريضة وليس الانتصار للحق والدين، ولأنهم أصلاً لا يحبون التفكير ولا يُجيزون لأنفسهم مناقشة ما يسمعون.

الجهة المقابلة فيها فريق لا يُقْبِل للعالم عَثَرَةٌ ولا يُجِيزُ له الخطأ، فإذا زلَّ في مسألة أو احتار في موقف نبذوه وتركوه وفاطعوا علمه وكتبه وأحاديثه جمِيعاً، كأنه لم يحسن قط وكأنه لا فضل له في دنيا ولا دين.

* * *

لقد انتصَفَتْ سَنَةُ الثُّورَةِ الثَّانِيَةِ وَمَرَّ عَلَيْهَا مِنَ الْأَهْوَالِ إِلَى الْيَوْمِ مَا يَكَادُ اللَّيلُ يُشَيِّبُ مِنْ فَظَاعَتِهِ فَيُنَقْلِبُ سَوَادَهُ الْبَهِيمَ بِيَاضِهِ
نَقِيَاً، فَلَمْ يَبْقَ عَذْرٌ لِقَاعِدٍ وَلَمْ يَبْقَ عَذْرٌ لِسَاكِنٍ.

وإذا كان لكل واحد من أبناء الوطن عمل وواجب منوط به فإن أثقل تلك الأعمال هو ما نيط بالعلماء لأنهم قادة الأمة وورثة الأنبياء، فإذا لم يقودوها في هذه الليالي الحالات فمن يقودها؟ وإذا لم يرسموا الطريق لها فمن يرسمه لها؟ ولا ريب أن العالم يُثْقِل حمله ويُكَبِّر واجبه كلما ارتفع ذكره وكثير متابعيه. فمن أجل ذلك طالبت الأمة علماءها بتصدر الثورة وألحت في المطالبة، ومن أجل ذلك نصح الناصحون وانتقد المتخاذلون. وإذا لم يكن هذا القلم واحداً من الناقدين والناصحين والمطالبين بما قيمته وبأي حجة يَرِدُ صاحبُهُ على الله؟

قد يقول قائل: هذا كله حسن مفهوم، ولكن لما ترکت البوطي ونصحت النابلاسي، والأول أولى بالنقد والتذكرة؛ والجواب سهل قريب، فإني ترکت البوطي فلم أتعرض له بحرف لأنني رأيته أهونَ على الله من جناح بعوضة، وقد فضحه الله وهتك ستره فلا أباليه ولا يباليه غيري من الناصحين. وأما النابلاسي فإني أحبه في الله وأقدر فضله، وقد أقررت بذلك في تعليقي الصغير على كلمته (التي انتقدني بعض محببيه بسببها) فوصفته بأنه "عالِم احترمناه وأحببناه"، وهو غني عن شهادتي بما ألقى الله له في القلوب من قَبُول.

مثل الشيخ راتب لا يضره أن يعاتبه مثلي ولا يُغضبه أن يسمع النصيحة من تلامذته، فإن الكبير لا تصغره نصيحة صادقة ولا يؤذنه عتابٌ مؤدب، بل هو يزداد رفعه بقبول النقد وسماع النصيحة. لذلك أقول للذين انتدبو أنفسهم للدفاع عنه: وفروا على أنفسكم العنا، فإن للشيخ لساناً أمضى من ألسنتكم وقلماً أبلغ من أقلامكم. لو أراد الردّ لردّ بنفسه، ولكنه علم أنني محب صادق ناصح، لست عدواً ولا مبغضاً ولا منكراً لعلمه وفضله، وأنني لا أريد إلا الخير له ولشعب سوريا ولأمة المسلمين.

* * *

إن الذين يهُنّون مثل العاصفة يدافعون عن شيخهم - إذا تعرض للنقد شيخهم - يذكرونني بأبواق السلاطين، وقد عرفنا منهم في سوريا الكثير ونعرف غيرهم في كل بلد من بلداننا الميتة المتخلفة في ركب الدنيا وركب الدين.

ما إن يوجَّه أحد الصادقين نصيحة أو انتقاداً لطيفاً مُؤدبَاً لولي الأمر الحاكم بأمر الله حتى يتور المتخاذلون ثوران البركان ويشحنوا الصحف والمجلات والمواقع والمنتديات والفضائيات بهزيان مملَّ سخيف، ظاهره الدفاع المُنْصَف وحقيقة النفاق والكذب والتديس، وهو يساهمون - بعملهم هذا - بالسهم الأكبر في صنع المستبددين والطواويث ويشحملون وزرهم وإثمهم إلى يوم الحساب. هذا الذي يصنعه "أبواق" السلاطين يصنع مثله "أبواق" المشايخ والعلماء من حيث لا يشعرون.

الشائع أن الاتّباع الأعمى وتعصب التلميذ لشيخه آفة عامة في أوساط المتصوفين، وهذا صحيح، ولكنها ليست حكراً عليهم دون غيرهم، فقد لاحظت أنها موجودة حيثما وُجد شيخ له تلامذة ومربيون، لا يَسْلُم منها إلا القلة من العقلاة والمنصفين الذين يحكمون على الرجال بالحق لا يحكمون على الحق بالرجال، والذين لا تسلب عقولهم ولا تعمي بصائرهم شهرة المشتهرين من العلماء والدعاة. لا تلوموا الصوفيين وحدهم، حتى السلفيون يتذمرون بمشايخهم تعلقاً مبالغأً فيه ويتبعونهم بلا تفكير ولا اعتراض، وربما ذُكر اسم العالم من علمائهم فخشعوا له وخضعوا كما يصنع طالب العلم مع أكابر المجتهدین،

وإنما هو ناقل لم يجتهد قط ولم يزد على حفظ المسائل وروايتها ولا يعدو أن يكون واحداً من علماء الرواية الذين يملؤون الدنيا، ثم إذا ما خالفهم عالم كبير ومجتهد أصولي خبير وجاء بفتوى لم يألفوها فإنهم يرددونه أو يبعدونه وينكرون عليه أسوأ نكير!

لقد آن لللامة أن تتعافي من هذه الآفة وأن يتابع عامتها علماءهم متابعة عاقلة مبصرة، فإذا أخطأ العالم قوموه، وإذا قصر انتقدوه، وإذا ضيق واسعاً أو عسر يسيرًا ناقشوه وحاججوه، وإذا باع نفسه للسلطان نصحوه ثم هجروه وقاطعواه... على أنه لا ينبغي للنصيحة والانتقاد أن يخرجها عن حدود الأدب ولا أن ينقلبها إلى هجاء وتلاؤم. وأهم من ذلك كله أن لا يتسبب الخطأ يخطئه العالم (ولا الاثنان ولا العدد من الأخطاء) في رفضه ونبذه جملة واحدة، بشرط أن يكون العالم عالماً حقاً وأن يكون مخلصاً صادقاً، فإذا كان متعالماً وليس له من العلم شيء لم يستحق الاحترام ووجب كشفه لئلا يُفسد على الناس دينهم، وإذا كان خبيثاً سيئ النية ممن يشترون الدنيا بالدين ويدلسون على العامة ويتباعون السلاطين فإن فضحته من أوجب الواجبات ومن حق الجاهلين على العالمين.

* * *

يا أيها الكرام: إن الرد على العالم -بأدب وعلم- من خصائص أمة محمد صلى الله عليه وسلم ومن أعظم مزايا أهل السنة والجماعة، فلا تحرمونا هذه المزية ولا تجعلونا مثل الشيعة.

هل تعلمون ما الفرق بيننا وبين الشيعة؟

أعرف أن بيننا وبينهم من الفروق كما بيننا وبين اليهود، وإنما قصدت موضوعنا الذي نبحثه هنا. قدس الشيعة علماءهم وسلموهم عقولهم فلعلوا بها كما يلعب لاعبو الكرة بالكرة في الملعب، فضلوا وأضلوا ولم يجدوا من يقول لهم: من أين لكم هذا؟ أما المسلمون من أهل السنة فقد أراد الله أن يحفظ لهم دينهم فعلمهم أن لا يقدسوا أحداً من المخلوقات وأن لا يمنحو العصمة أحداً من الخلق، فلا يقدسون إلا الله ولا معصوم عندهم إلا رسول الله صلى وسلم عليه الله، فإذا أخطأ العالم فيهم ردوا عليه خطأه وقوّموه وسدّدوه، وبذلك تتحقق لأمة محمد -عليه الصلاة والسلام- واحدةٌ من خصائصها العجيبة: إنها تنفي عن نفسها الخبر وتقى دينها من التحرير بعملية رقابية جماعية تشتراك فيها جيوش من العاملين المخلصين، من العلماء ومن العامة على السواء.

ولعل هذا هو معنى قوله تبارك وتعالى في كتابه الحكيم: {والمؤمنون والمؤمنات بعضُهم أولياءُ بعضٍ، يأمرُون بالمعروف وينهُون عن المنكر}، فذكر الجنسين (المؤمنين والمؤمنات) وأطلق الوصف ولم يقتصره على العلماء دون العامة. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَجَارَ أَمْتِي أَنْ تجتمعُ عَلَى ضَلَالٍ" (وهو حديث حسن بمجموع الطرق كما قال الألباني) وقوله: "يُحملُ هذَا الْعِلْمُ مِنْ كُلِّ خَلْفَ عَدُولِهِ، يَنْفُونَ عَنْهُ تحريرَ الْغَالِبِينَ وَانتِهَالَ الْمُبْطَلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ" (حديث مرسل روی موصولاً من طريق جماعة من الصحابة، وصحح الحافظ العلائي بعض طرقه).

* * *

الخلاصة:

ما يجمعنا بعلمائنا هو العلم والإخلاص من طرفهم والمحبة والتقدير والنصيحة من طرفنا، فلا نبالغ في تمجيدهم وتعظيمهم لدرجة التنزيه والتقديس (ولا هم يقبلون منا ذلك)، ولا نقابل خطأهم وقصورهم بالذم البذيء والهجاء القاسي والمقاطعة الكاملة، بل بالتذكير والنصيحة اللطيفة المؤدية، إلا أن يكون الواحد منهم متعالماً بلا علم، أو يكون علمه للدنيا لا للآخرة

للسلطان أو للمال أو للجاه لا لله. أما ما نريده من علمائنا وما نظن أنه الواجب عليهم والعمل الذي يرفعهم في الدنيا والآخرة فسوف أفصّله في مقالة آتية إن شاء الله.

المصادر: